... والقبلية النقدية أيضاً !

بقلم عبد المجيد دياب

«ما أشنع الظلم وأبشعه حين يكون على مفكر أو ناقد أو أديب»

تحدثنا في مقالتنا السابقة عن القسم الاول من آثار القبلية النقدية التي كانت سببا في اهدار مبدأين انسانيين يتمثلان في تكافؤ الفرص والبقاء للاصلح ، وقد أفردنا المقالة السابقة للحديث عن انور المعداوي احد النقاد الإصلاء من هذا القسم ـ الذين لم يأخذوا حقهم في مزاولة الحياة الادبية والفكرية ، في الوقت الذي ينعم بها الادباء المغرورون الذين ألفوا البطالة حتى عبدوها ، واستمرأوا الكسل ، ودبت في أوصالهم حميا الخور والامتهان العلمي.

ولعل قارئا يسأل سؤالا هو ألزم سؤال في هذا المقام ، ولم أفردت الاستاذ المعداوي بمقالة خاصة ؟ ونجيب بدورنا على هذا التساؤل قائلين ان الذي صنعته القبلية مع المعداوي يعتبر مثلا صارخا لا يرقى اليه ما صنع مع غيره ، وذلك بالاضافة الى انه قام بحركة تطهير في الحقل الادبي في العهد الماضي ، فكان من المنتظر ان تكون مكافأته على هذا العمل الجليل الذي لا يقوى عليه ا لا افراد قلائل في كل عصر وجيل بما يتفق وجهادهم في الميدان الفكري والادبي .

لقد كان من المتوقع مثلا ان يمنح شهادة تقدير ادبي تمنحها الدولة للمخلصين من ابنائها ، وان توليه مع امثاله زمام القيادة الفكرية والادبية بدلا من حملة العكاكيز والكيزان الذين يسيرون في الدروب والمنعطفات الملتوية .

وقد يخالفنا قارىء اخر مدعيا علينا أننا قد بالغنا في تقدير المعداوي حينما ذهبنا الى أنه صاحب أصالة فذة وعبقرية خلاقة في النقد الادبي ، لان المعداوي لم ينتج في هذا الميدان منذ عشر سنين . ولانه اذا صح ان نقول ذلك عن المعداوي فما الذي نقوله عن « الدوس هكسلي » وعن العقاد وهازلت وغيرهم من المفكرين والنقاد ..

ونحن نرحب بهذه المخالفة لانها تقودنا الى وضع النقط فوق الحروف لكي نزيل ما التبس على صاحبنا من شبهة ، ومن هنا فاننا لا نرى ان للعبقرية مقياسا محددا مرسوما « ومسجلا بالشهر العقاري » بحيث لا تقاس به الا عقلية هؤلاء الذين ذكرهم صاحبنا ، ولا تخلع صفة العبقرية الا بناء على نتائج هذا المقياس المفصل على الكبار ، لان العبقرية من وجهة نظرنا هي القدرة على الخلق والاصالة في فهم الاشياء وعلاقاتها بعضها بالبعض الاخر ، وبالتالي فالعبقري خالق . كما انه ليس هناك مانع عقلي من ان يكون هؤلاء عباقرة والمعداوي عبقري ايضا .. لان الاصالة والقدرة على الخلق موجودة عنده ، وقد ظهرت اثارها فيما كتبه من فصول في النقد الادبي تضمنها كتابه وغيره من الدراسات التي نشرت بالمجلات الادبية، وليس هناك من فارق بين عبقرية هؤلاء والمعداوي .. ان الموقف هنا مختلف عن الموقف هناك ، حيث وجد هؤلاء ظروفا مهيئة للانتاج الادبي والفكري ، أو لم توجد الظروف وكانوا ذوي طاقات عصبية ونفسية تقدر على تحمل ما يلاقونه في سبيل توصيل فكرهم وانتاجهم الى الناس حتى الى المعاندين المكابرين الذين يغمطونهم كل حق .. أما المعداوي فان الظروف لم تهيىء له الفرصة المناسبة لكي يستطيع أن يواصل انتاجه الفكري والادبي بتلك الغزارة التي عهدناها فيه قبل ذلك ، لان العوامل الجانبية كما قلنا تدخلت وأهدر مبدأ تكافؤ الفرص بدعوى القبلية النقدية وملحقاتها ..

والمعداوي ليس من ذلك النوع الذي يعرض نفسه ، او يتملق مخلوقا ، او يلقي بنفسه في مزدحم طلاب الحاجات والرغائب ، لانه كان بالامس القريب شاهرا قلمه في وجه هؤلاء ، ولان تكوينه النفسي والمزاجي لا يقبل هذا السلوك الشائن ولو التصقت يده بالتراب .

واذا اضفنا الى ذلك حساسيته الرهيفة ، ومزاجه السوداوي عرفنا ان نفسه قد افعمت بالمرارة والالم وزهد في الحياة والخلود وندب حظ الانسانية التي تقوم على اقتناص الفرص والاتجار بالمبادىء ، ومن هنا اتشحت فلسفته بالسواد ، فغدا ساخرا من الحياة والاحياء ، يقف فيهم موقف المتفرج ، اذ ضمته بهم جلسة او منتدى ، واذا كان منفردا فانك لتعجب كل العجب حينما ترى شابا فارع الطول ، وضيء الوجه ، ولكنه مقطبه ، وتعلوه مسحة من الجهامة تروعك فيخيل اليك ان أثقال الدنيا بأسرها قد تجمعت لتنزل على رأس صاحبنا لتصهره .. ويروعك منه كذلك أنك تراه كأنه لا يشعر بالناس لانشاغله عنهم بشيء في يده ، وهو في الحقيقة يخفي احساسه الجياش بكل ما يدور حوله من صغيرة او كبيرة ..

وانسان هذا حاله ـ وهو مثل لكثيرين ـ لم يجد الظروف التي تهيأت للذين وقف عندهم صاحبنا ، بالرغم من جهاده الضخم الذي عرفناه قبل عشر سنين ، ولم يتمتع ببلادة حس حتى يصبر على السخافات ... ، أو وقاحة نفس حتى يزج بنفسه في مزدحم طلاب الحاجات ، أو في موكب المتملقين المنافقين الذين يضطلعون بقيادة الميادين الادبية والفكرية .

مثل هذا الانسان لا نلومه ، لاننا حينئذ نلوم غير ملوم ، وانما الذي نلومه هو أخلاقنا نحن ، أخلاقنا التي اشترعت القبلية في الميادين الفكرية والادبية حتى غدت منهجا ينتمي اليه من يريد علوا في الارض، وبعدا في الصيت وشهرة تشيع في الارجاء .

ومن ثم فاننا لنشكر للصديق الذي خالفنا فيما ذهبنا اليه، لانه أتاح لنا أن نضع النقط على الحروف وان نقول له كان من المتوقع ان تبحث الدولة بالعقلية الناضجة والاحساس الثوريين عن المعداوي وأمثاله ممن سنذكرهم في هذا المقال لتلقي اليهم بأعبائها الفكرية والادبية والاعلامية في شتى المجالات ، لان اكتشاف المخلصين في الفكر والادب أصعب فيما نعتقد ـ من خوض معركة حربية لها من الخطر والهول والجلال ما لها .. أصعب منها مرة ومرات وعشرات المرات وآلافها ، لان هؤلاء المفكرين الاصلاء لا يعرضون انفسهم عرض السلع في الاسواق على مسؤول مثلا ، وانما يتركون للمسؤول فرصة التعرف على اعمالهم في ماضيهم وحاضرهم ، وهذه مهمة المسؤول عن القيادة الفكرية والادبية القصوى التي نزعم أنها تمثل الثورة الثانية التي دونها تتعثر أعمالنا الفكرية والادبية والاعلامية ، وتتخبط في ضروب ومتاهات دون هدف واضح ، لان القوامين على هذه الاعمال من دعاة البطالة الذين يعيشون في سماوات من التضليل والافك والبهتان التي ملأت عليهم حياتهم فغدوا سكرى مخمورين لا يفيقون الى الحق الابلج ـ وليس في وسعهم ان يفيقوا اليه ، لان معناه عدم وجودهم ـ وانما يتخذون الباطل الصراح منارا يقبسون من ضوئه الكاذب الخادع ليرضوا به ذوي النفوس العليلة التي لا تكلف نفسها اعمال ذهن ولا شحذ

قريحة ، يتخذون الباطل منارا ، والفاسدين المفسدين قدوة وامـــاما، وتلك عبقريتهم وبراعتهم التي لا يبارون فيها ، والتي تشير بوجـودهم في الساعة واليوم لا في الغد والزمن ، لان الخلود ليس من العتهبمكان حتى يصافح هؤلاء الحمقى آخذا بالمنهج القرآني الذي يتضمن انالزبد يذهب جفاء ، وأن الذي ينفع الناس يمكث في الارض .

وهذا المنهج القرآني يثلج صدورنا ، ويشيع الطمأنينة فينفوسنا ازاء ادبائنا ونقادنا ومفكرينا الاصلاء الذين لم يعرفوا بأعمالهم قدر ما عرفوا بالاحن والعداوات والبواعث الشخصية التي أفاضها عليهـــم منتجو الزبد الذين يتخذونها وسيلتهم الى التسلق والترقي.

ولكننا نقول لهؤلاء : اصنعوا ما شئتم .. اصعدوا الى السماء.. أو انزلوا الى الارض في مهاو سحيقة .. شرقوا أو غربوا .. دوروا حول انفسكم حتى تسابقوا سفن الفضاء .. أفعلوا ذلك كله أو بعضه، فانه لن ينفعكم شيئا ، ولن تملكوا به ضرا ولا نفـــعا ، لاننا نعرفـكم بسماتكم واشخاصكم وبواعثكم .. نعرفكم معرفة صحيحة مؤسسة على المنطق الواعي ببواطن الامور ، ولن تأخذوا ممن عرفكم من المثقفين ــ وما أكثرهم ــ تقديرا تباهون به أطفال الحارات والازقة ، في الوقت الـذي يتوجه فيه المثقفون بكل تقديرهم واجلالهم وصلواتهم صوب الاصـلاء من المفكرين والادباء والنقاد ، يتوجهون صوب الاستاذ :

علي أدهم

« يعرف الناس بعض فضله ، وان ما يعرفونه مع ذلك لكثـير ، موسوعة من العلم والادب ، يقوم عليها حارس امين ، حراسته جـد ورصانة وايمان ، يشتغل بالتاريخ اشتغال الفيلسوف ، ويشتغـل بالفلسفة اشتغال المؤرخ ، ويمزج التاريخ والفلسفة معا بفطنة الاديب، ومن عيوب الشرق ان يعرف من مثله القليل ، ولا يعرف كل ما ينبغي ان يعرف منه ، وعنه، وهو كثير » .

بهذه الكلمات القصار استطاع العقاد (1) ان يرسم شخصيـة أستاذنا علي أدهم ، وأن يعبر عن شخصيته واعماله الادبية ــ من وجهة نظره ــ في تعبير موح ولكنه أدل على الاستاذ علي أدهم أوضح دلالـة وأتمها ، ولا يقف تقدير العقاد عند هذا الحد ، بل انه لينزل على رأي علي أدهم في بعضالاحيان ، وينشر ذلك على الناس في صحيفة الاخبار، وذلك كما حدث في نسب الناقد الالماني « ليسنج » وادعاء يهـوديته بالامس القريب .

ونحن ازاء تقدير العقاد للاستاذ علي أدهم لا يسعنا الا أن نقـف عند بواعث تقدير العقاد له ، ليتسنى لنا بعد ذلك أن نعرف مدى آثـار القبلية النقدية في غمط فضلهعن طريق التجاهل والتناسي حينا وعـن طريق التغابي في بعض الاحيـان .

فلسفة التاريخ :

يقف الاستاذ أدهم في فلسفة التاريخ وقفة مع أبي العلاء المعـري حيث يصطحبه في رحلة داخل احساس المعري وعواطفه وفكره ، فيحنو عليه ، ويربت على كتفه قائلا له : لست بدعا يا أبا العلاء في آرائـك وانما لك أمثال ونظراء في الفكر الاوروبي الحديث ، وانك لتقدم عـلى عصرك وجيلك تقدما يهيىء لك مقعدا وثيرا مع الخالدين ، وان الذيـن حاولوا أن يغمطوا حقك يا أبا العلاء قد جرفهم تيار النسيان فأودىبهم الى قاع سحيق حيث أغلق عليهم صفحة من العقاب على ما اقترفوا في حق أبي العلاء حتى جعلوه متشائما متطيرا من الحياة والاحياء جميعا.

وفي هذه الوقفة يرجع بفكره الى المعري في عصره ليعرف هل استمـد المعري تطيره من أحوال عصره المضطربة وتشبع به من جوه القاتم؟ أم استمد تطيره من مصدر اخر ؟؟

وفي الاجابة على ذلك يذهب الاستاذ أدهم الى أن ادعاء أنالعصر كان السبب في تطير صاحبنا غير مقنع ولا شاف ، لان عصر المعـري عصر شك وانحلال وانحدار في مهابط التدهور ، ولكن تشاؤم المعـري كان أبعد أعراقا من أن نعزوه الى حالة عصره ، وعبقرية المعري بطبيعتها عبقرية حزينة ، وقد قوى عصره نزعة التطير في نفسه وشحذ يأسـه وأكد حنقه على الايام وتصاريفها ، ولكنه لم يخلق هذه النزعة .

ويمضي على أدهم في تفسير بواعث التشاؤم عند المعـري قائلا: « وقد لاحظ أناتول فرانس ان الفلاسفة المتطيرين قد يظهرون فيأوقات ازدهار الحضارة وصفاء الجو ، والمسألة قبل كل شيء مسألة مـزاج شخصي وطبيعة نفسية قد يزيدها العصر قوة دون أن يوجدها ، وقـد يضعفها ويصد تيارها ولكن دون ان يقضي عليها ، وأهم العوامل المكونة لتطير المعري كامنة في نفسه ضاربة في صميـم طبـاعه ، ومردهـا الى احساسه الفردي ومشاعره الشديدة اليقظة والتنبه !!

على أنه يرى أن أبا العلاء بهذا المزاج وذاك الطبـع من الارواح المستوحشة من زهرة الدنيا الناقمة على الوجود والمؤثرة لظلمة العـدم وصمت الفناء ، وهو يكره الحياة في الصميم والجوهر فضلا عنالصور والاعراض ولا يشكو عصرا ليمدح اخر ، وانما كل العصور عنده سواسية والناس جميعهم اشرار خساس الطباع ، ليس لكسرهم جبر ، ولا لدائهم دواء يستطب به ، فلا سبيل للامل ولا معنى للحرص على النسل فيمثل هذا الوجود الخاسر ، ويرى شوبنهاور أن الحياة في نفسها جريمة نكفر عنها باحتمال الامها ، وفي الوقت نفسه يرى المعري أنها « جنـاية »

ــ التتمة على الصفحة ٧٤ ــ

(1) اننا نقف عند رأي العقاد دائما لسببين : أحدهما أن العقـاد في تقديره للادباء والمفكرين لا يمالىء أحدهم ، لان منهجه في تقـدير الاشخاص ألا يقول كلمة ثناء في انسان لا يستحقها ، لان خلعالضـرس عنده أولى منها .

ثانيهما : للرد على الذين يدعون باطلا ان العقاد يقـف عقبة كأداء في طريق الادباء الناشئين ، ويظلون يعولون ويصرخون ، ويملأون الدنيا ضجيجا وعجيجا ، وهرجا ومرجا ، في كل زمان ومكان ، فهـؤلاء نقـول لهم : ان العقاد لا يقف في طريق الاصلاء ذوي العبقريات الخلاقة ، ولا يحارب الا الادعياء مرضى الشهرة ، الذين يتمتعـون بالعتـه العقلي، مشوهي النفس والفكر .

صدر حديثا :

الفجر آت يا عراق

للشاعر :
هلال ناجي

الديوان الذي يرهص بثورة العراق الاخيرة عـلى الطاغية قاسم ويغني آمال الشعب العربي في العـراق ونضاله في طريق الوحدة والاشتراكية والحرية .

قصائد من وحي ١٤ تموز وثورة الموصل وثورة ١٤ رمضان .

الثمن ليرتان لبنانيتان

منشورات :
دار الآداب ــ بيروت
مكتبة النهضة ــ بغداد

والقبلية النقدية ايضا

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٤ ـ

جناها الاباء القساة على أولادهم المساكين ، وأنها مصيبة تعالج بالبر والاحسان :

فكونك في هذي الحياة مصيبة يعزيك عنها أن تبر وتحسنا

على أنه يرى أن أبا العلاء ينفرد من بين شعراء العرب قاطبة بميزة واضحة لا سبيل الى نكرانها وهي أنه أقربهم في مستوى الفكر والثقافة الى فكر الغرب في العصور الحديثة ، وكأن فكره الجوال قد نقله من عصره الى أفق الفكر الاوروبي الحديث .

وفي مقام التدليل على هذه القضية يقول : « ومن يدمن قراءة المعري يلحظ أوجه الشبه بينه وبين أمثال « شوبنهاور وليوباردي وفيننجر وأناتول فرانس وكارلايل » وغيرهم من أعلام الفكر الغربي، بل ان هناك مشابهة قوية بينه وبين شكسبير نفسه ، وفي اعتقادي ان هذه المشابهة البارزة لم تجيء عفوا ، وقد يمكن الاستعانة على فهمها بشيء يسير من التحليل التاريخي ، ولا ريب أن في كل عبقري جانبين، أحدهما عالمي والاخر زمني محلي ، والجانب الاول متصل بمزاجه الخاص ونفسه الدخيلة المطوية في ظلمات الخفاء . والجانب الثاني متصل باحوال العصر وخاضع للتفسير والبحث ، وأرى أن هناك شبها من وجوه كثيرة بين عصر المعري والقرن التاسع عشر ، وكذلك مشابهة عامة في المزاج الاصيل والطوية الكامنة بين المعري والكثيرين من كبار مفكري الغرب ، والتئام هذين السببين قد زاد الشبه العام توكيدا ، وجعله من الوضوح بحيث يسهل لمسه من غير كبير كلفة » .

وفيما يختص بالعصر ذهب علي أدهم الى انه من أرقى عصور النضج الفكري للحضارة الاسلامية ، برغم اضطرابه الشديد من الناحية السياسية ، والمعروف ان العصور التي تتراخى فيها الروابط الاجتماعية وتتفكك الوحدة هي عصور الضعف في حين أن العصور التي تقوى فيها تلك الصلات ويكون المجتمع أشبه بوحدة عضوية هي عصور القوة ، وقد تكون عصور القوة والوحدة راكدة من الوجهة الفكرية والعلمية مجدبة من الروح الفنية ، وقد تكون عصور الانحلال والضعف زاهية بالحياة الفكرية مشرقة بالاثار الفنية ، ومن هنا فان عصر المعري في جملته من عصور الضعف التي غلب فيها الشك اليقين ، وتحللت فيها العصبيات وفترت المبادىء ، وضعفت فكرة « السلطة العامة المحترمة » وامتهنت في شخص الخليفة العباسي أكبر ممثليها وتهيأت الافكار لشيء من حرية الفكر ، وانما مهد لها السبيل ضعف التعصب وانطفاء جذوة اليقين وانتشار الشك وتناول كل شيء بالبحث والنقد ، وكذلك في القرن التاسع عشر كان العصر مكفهر الافق قد تخلخلت فيه اركان المجتمع بسبب الهزة التي أحدثتها الثورة الفرنسية وهدمها للنظم القديمة ومحاربتها الاراء العتيقة ومحاولتها القضاء على التقاليد ، وكان الانسان واقفا بين بناء اجتماعي متهدم ، وبناء لم تتم بعد اقامته ، وكان الموقف موقف شك وحيرة وتساؤل ولهفة يكثر في أمثاله الفلاسفة المتشككون والمتطيرون ، ويظهر من ناحية اخرى دعاة الاصلاح وبناة النظام الجديد يبشرون بالعصر المقبل ويجددون اليقين الواهي ، وامثال هذه الاوقات صالحة للفكر مثيرة له ، لانه يجد في اضطرابها وفوضاها مجالا للنماء والاتساع ، ويأمن خطر العدوان على حريته واقتحام حرمه ، لان فرصة التفكك والانحلال تهيىء له اسباب الحرية وتمكنه من تصفح الخواطر المختلفة والقيام بسياحته في عالم الافكار المتناقضة والمذاهب المختلفة، وليس في وسع مفكر مثل نيتشه او شوبنهاور او رينان ان يعبر عن نفسه التعبير الكامل في عصر مثل عصر لويس الرابع عشر او العصور الوسطى ، وما كان ليسمح عصر مثل عصر عبد الملك بن مروان او عصر الرشيد بوجود المتنبي أو أبي العلاء ، وهذا من أشد ما ينعاه الفرديون على أنصار الاشتراكية لانها تحاول باحكام الروابط الاجتماعية أن تصب الناس جميعا في قوالب متشابهة وتقضي على التنوعات الفردية واختلاف ألوان الامزجة .

على أن ابا العلاء ـ في رأي الاستاذ أدهم ـ نهم الفكر شغوف بتعرف كل شيء مطبوعا على تلك العالية الخاصة بالعبقريين، وهذا الاتساع النفسي من شأنه ان يوجه النظر الى التاريخ ويغري بالتعمق في تأمل حوادثه وعرض صوره ، ومن ثم كان للثقافة التاريخية دخل كبير في تكوين كبار شعراء العالم ، وفي أشعار هوميروس وفرجيل وروايات شكسبير وجيتي وشيلر وبيرون شواهد نواطق بذلك ، ومن كان في عمق أبي العلاء فلا مفر له من ان يطالع قصة الخليقة ويجول في تاريخ الانسانية ليسرد اخبارها وينص عبرها ويتأمل ما انتابها من مختلف الاطوار ومتنوع الحالات ، وقد وجد أبو العلاء في التاريخ مجالا رحيبا لتطيره ومنفذا لسخريته ، وكان يشعر بغزارة معرفته التاريخية ويقول:

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن الا وعندي من أخبارهم طرف

وبالاضافة الى ذلك فان أبا العلاء كان رجلا حائرا شاكا منفردا بنفسه ماهرا في التنقيب على مواطن الضعف في الانسانية ، نزاعا بفطرته الى التطير ، من الواضح اللازم ان تسمع في فلسفته التاريخية صدى يأسه وترى أثر تململه وتسخطه ، وقد كان أبو العلاء شديد الفردية في احساسه يصادم المجتمع بفرديته الاوحدية الشاذة ولا يرضى النزول من برجه العاجي للانغماس في تيار الجماعة وانما الدنيا ملعب وهو متفرج لا لاعب كما في قوله :

والارض رقعة ألعاب مقسمة منها سهول وأجبال وحزان

وهو من ثم لا يرى في التاريخ الا الفرد المحدود القدرة يصاول الدهر فيغلب ، والمجتمع في نظره كتلة من الافراد لا وحدة عضوية ، وهؤلاء الافراد لم يجتمعوا في ظل فكرة روحية أو بباعث سام ، وانما أرغمهم على الاجتماع الطماعية والحيوانية :

ما أشبه الناس بالانعام ضمهم الى البسيطة مصطاف ومرتبع..

وعلى هذا المستوى من الفهم في تحليل العصر ومزاج أبي العلاء يدلف مفكرنا الى اختلاف المؤرخين في تفسير التاريخ واستكناه حقيقته المتوارية وراء مظاهره ، ويرى انه اختلاف واسع ، ولهم فيه مذاهب مختلفة ، وأشد تلك المذاهب تناقضا مذهبان :

أحدهما يلوذ به المتطيرون وهو مذهب الحركة الدائرة ويمثله القدماء بالافعى التي تأكل ذنبها ، وانصار هذا المذهب ينكرون الوحدة الاجتماعية والتقدم التدريجي الشامل ولا يعتقدون أن هناك غاية منصوبة تتجه اليها الانسانية ، ويرون المجتمع والانسانية عامة شراذم من الافراد تستحثها المطالب المادية وتسوقها الحاجة الى الاجتماع استجابة لتلك الرغائب والحاجات ، وحينما تكون الظروف موافقة تتكون نواة أمة، وكل هذه الامم خاضعة لقانون الحركة الدائرة ، فهي تمر في أدوار متتابعة من الحكومة الملكية الى الحكومة الارستقراطية ومنها الى الديموقراطية وهذه تسلمها الى الفوضى ، ومن الفوضى تنحدر الى الحكم المطلق وهكذا دواليك .

والانسان في رأي أنصار هذا المذهب موكول للصدف العمياء مهجور في هذا الكون المريب ، تلعب به الغرائز وتعبث به الاهواء وتغريه الاطماع والشهوات فلا يجد من أمرها فكاكا ولا يملك لها دفعا . وفي هذا يقول ابو العلاء :

تورعوا يا بني حواء عن كذب فما لكم عند رب صاغكم خطر

كما أنهم يرون أنه ليس هناك عناية الهية مشرفة على هذا الكون تريق الضوء في حياة الانسان وتأخذ بيده في هذه الاوحال والارجاس والعوائر ، فما قيمة الاعمال والجهود وما أثرها في عالم كهذا العالم ؟.

ومن اصحاب هذا الرأي فريق ضعفت في نفوسهم الحاسة الاخلاقية وتمت الغلبة لعقولهم على عواطفهم فشأنهم في مداورة الايام واقتناص الفرص وعبادة القوى المادية والاتجار بالمبادىء والتقلب في أقذار الحياة تقلب السمكة في البحر . وفريق اخر من ذوي النفوس الخيرة والقلوب الكبيرة قد راعتهم هذه الفكرة وملأت نفوسهم مرارة وألما فهم يبشرون باليأس والتزهيد في الحياة ويندبون حظ الانسانية ويقفون على اطلال الحضارات يبكون مصائر الامم ، وفلسفتهم حزينة مجللة بالسواد ملأى بصور الفناء ، والانتصار في نظر أصحاب هذه الفلسفة نذير الهزيمة، والحياة دليل الموت والضوء رسول الظلام ، وهم يسخرون من أنفسهم ومن الطبيعة والكون ومن الله نفسه وأنبيائه ورسله ، وكأن الطبيعة التي

ضنت عليهم بروح الامل والسرور الخالص قد حبتهم بالنصيب الاوفر من ملكة السخرية والاستهزاء والزراية .

والمذهب الثاني يؤمن بالتضامن الاجتماعي وقانون التقدم ويرى ان الانسانية سائرة الى الكمال ، وهي تستخلص ذلك من نزعة الاجتماع الغريزية في الانسان ومن وحدة النوع الانساني واتفاق الغرض الذي ترمي اليه الانسانية وتتجه نحوه جهودهما المشتركة ، وهي ترى ان خير كفيل بتحقيق أمل الانسانية هو انتقال الحق من جيل الى جيل، وذلك النزوع الى الكمال الذي يهون التضحية ويوحي الاديان ويعمر القلوب بالايمان .

ويفخر كلا المذهبين بطائفة من الاسماء البارزة في تاريخ الفكر الغربي ، فمن انصار المذهب الاول مكيافيلي وشوبنهاور الذي يقول « ما دامت الحياة أبدية فان فكرة التقدم لا محالة باطلة » وكارليل ، ومن القائلين بالتقدم بيكون وديكارت وميشليه وأوجست كنت.

وأبو العلاء في نظره للتاريخ ينتسب الى المذهب الاول فهو ينكر التقدم ولا يرى جديدا تحت الشمس فيقول عن الناس :

يسعون في المنهج المسلوك قد سبقوا ... الى الذي هو عند الغر مخترع
أبكار هذه المعاني ثيبات حجا ... في كل عصر لها جان ومفترع

وهو لا يهتف للمنتصر وانما يحذره عاقبة كعاقبة المغلوب فيقول له:

لا تفرحن بدولة أوتيتها ... ان المذال عليه مثل الدائل

وينذر من احتوت يده على شيء بأنه سيفقده لان :

من يُعط شيئا يستلبه ومن ينم ... جنح الظلام فانه سيؤرق

وقد أجرى أناتول فرانس على فم المؤرخ الكهل في تحدثه الى ملك فارس المحتضر في احدى محاورات كتاب اراء جيروم كوانيار كلمة هي خلاصة فلسفته التاريخية وهي قوله في تلخيص البشر « انهم ولدوا وتألموا وماتوا » .

ويرى الاستاذ أدهم أن هذه الكلمة نفسها يصح أن تكون موجز رأي أبي العلاء الذي يقول :

خلقنا لشيء غير باد وانما ... نعيش قليلا ثم يدركنا الهلك

بل قد انحدر به اليأس الى ابعد من ذلك حيث فقدت الاشياء في نظره حقيقتها واشتبهت عليه مميزاتها وصفاتها :

فنحن في غير شيء والبقاء جرى ... مجرى الردى ونظير المأتم العرس

ويختم هذا الفصل في فلسفة التاريخ لدى أبي العلاء المعري بقوله: « وهذه هي أعمق قرارات اليأس ، ولكنها ايضا الذروة العالية التي ارتفع اليها المعري في عالم المفكرين المتطيرين واستحق بها أن يكون الامام الثبت والحجة والثقة في وصف علل الحياة وأدواء النفوس ، ولئن كان يسئمك من أبي العلاء جهامة الحزن الذي لا تزدهيه أعاجيب الحياة ولا تطربه أنغامها فقد يسليك منه تبسم الساخر المتهانف الذي لا يعفي شيئا من سخريته ولا يغفل لحظة عن تهانفه » .

وبهذا العمق في الفهم والاصالة في التفكير والعبقرية الخالقة وقف عند تولستوي وشوبنهاور في فلسفتهما للتاريخ ، واستطاع ان يجعلنا نحس التاريخ ونلمسه ونصافحه كأنه حي يتحرك من خلال فلسفة هؤلاء الاعلام في عالم الفكر والفلسفة والادب على حد سواء ..

ومن ثم نرى ان ما كتبه عنه العقاد بصدد الفلسفة والتاريخ صادق فيه كل الصدق ، ولا سيما حينما يقول انه يمزج التاريخ والفلسفة معا بفطنة الاديب . ومن هنا كذلك ساغ للاستاذ أدهم أن يطلق على كتابه « بين الفلسفة والادب » لان فصوله ـ كما يقول ـ عليها مسحة من الفلسفة ، وبها نفحة من الادب..

وفي اعتقادنا ان رأي العقاد لم يأت على كل جوانب الاستاذ أدهم، لانه عني فيما عني به بالفلسفة والادب معا وكتب عن التقائهما حول شاعرية المعري وفلسفته وغيره من الشعراء ، كما عني بدراسة العبقرية وانواعها ، مما يجعلنا نقول بحق عن الرجل انه مفكر وناقد معا ، استطاع ان يدرس القضايا الفكرية بحصافة الناقد وذوقه المرهف وأصالته .

ومن يتعمق في دراسة أدهم للفلسفة والادب يرى أن الرجل يذهب الى انه من غرائب العظماء الجديرة بالنظر والاعتبار والتي قد تظهر لاول وهلة عادية مألوفة جمعهم بين أشياء مختلفة الاعراق متناقضة كل التناقض .

وفي مجال التطبيق على هذه النظرية يبين أن التئام النزعة الفلسفية بالسليقة الشعرية في أبي العلاء ، والتئام النزعة العلمية بالموهبة الفنية في مثل جيتي وابسن من هذا القبيل . وذلك لان الفلسفة غير الشعر ، والشعر نقيض الفلسفة ، وكلاهما قائم على استعدادات في النفس متغايرة ، وقل مثل ذلك في الملكة الفنية والاستعداد العلمي ، فان الفن الذي دأبه ان ينظر الى الاشياء مجتمعة في كليتها غير العلم الذي يعمد الى التحليل وصدع ألفة الاشياء ، ومجراهما في طبيعة الانسان مختلف .

ويوضح هذه الحقيقة اكثر بالنسبة لابي العلاء وغيره من الشعراء فيمحو كل شبهة تعلق بذهن القارىء حينما يذهب الى أن أبا العلاء ليس فيلسوفا من باب التوسع والمجاز ، أو لانه أخذ بطرف من الفلسفة، وانما هو فيلسوف بالمعنى الشامل الحديث للكلمة الذي يفهمه منها أمثال الاساتذة وندلباند ، وهفدنج ، وفواييه ، وغيرهم من كبار مؤرخي الفلسفة في العصور الحديثة ، وهو يدخل الى حظيرة الفلاسفة بمثل البطاقة التي دخل بها امثال نيتشه وكارلايل وكولدرج وغيرهم من عظماء الكتاب والمؤرخين والشعراء الذين تغلبت عليهم افكار خاصة ظاهرة المعالم في مناحي تفكيرهم وان لم يقيموا على اساسها مذهبا فلسفيا منتظما محبوك الاطراف متجاوب الاقسام مثل مذهب شوبنهاور وهيجل وغيرهما من أصحاب الابنية الفلسفية الضخمة ..

ويرى أدهم أن لابي العلاء افكارا خاصة مبتكرة عن الاداب والاخلاق وآراء في المرأة والتاريخ والاجتماع والحياة وكلها ظاهرة الحدود، مطردة الاحكام لا بني يرددها ترديد العابد تسبيحاته ، ووراء هذه المجموعة من الخواطر المنثورة المنظومة فكرة عامة يفزع اليها ويحف برايتها، وهذه الفكرة العامة خفافة في كل ربوعه الفكرية ، ويسميها أدهم مذهبا فلسفيا وموقفا خاصا تجاه الحياة .

على أن الاستاذ أدهم ينظر الى هذه الطوائف من الخواطر والافكار التي تموج بها صفحات دواوين أبي العلاء منفصلة عن الصور الفنية والقوالب الشعرية ، وقد تجاوز المعري منطقة الشاعر الى منطقة الفيلسوف ، فهو من الحين الى الحين يصارع مشكلات الفكر الابدية ، ويجاهد معضلات الحياة المستعصية بجأش رابط من غير ونية ولا فتور، ويحاول ان يفض أغلاقها ، ويزيح النقاب عن سرها ، وتكاد تشعر بلهفة نفسه ، وتصلصل جوفه من شدة الظمأ الى جرعة من المورد الذي يرد كل المفكرين ظمأى متقلصي الشفاه ، لا ينقع لهم غليلا ولا يشفي لهم نفسا ، ولم تبرد من لوعته المشبوبة في هذا الجهاد الشاق أضاليل الاماني وكواذب الاحلام ، ولم تصرفه عن مطلبه العسير صوارف الحياة ومشاغل العيش ، وهو يحتال في رياضته هذه المشكلات ببراعة فنية مدهشة جديرة بأساتذة الفن وأعلام الادب ، ويكاد يذهلك في شعره التفكير الفلسفي عن الوحي الشعري لولا ما يتألق خلال اشعاره من بارقات الخيال الملون القوي وما يدفئها من حرارة المشاعر الحادة المستيقظة، وما يتطاير فيها من تلك الكلمات المجنحة التي لا تشب الا من مقول كبار الشعراء .

ومن ثم فان أبا العلاء في نظر أدهم شاعر كبير ، لان الشاعر الكبير في مفهوم مفكرنا هو الذي يفرينا بالتساؤل عند ما نقف حياله عن فلسفته وطريقة نقده للحياة ، كما جرت العادة أن يرصع الفيلسوف كتاباته بشواهد مستمدة من الشعر يدعم بها حجته ويبرر موقفه، فالشاعر اذن يقتبس من أنوار الفيلسوف ، والفيلسوف يختلس من أشعة الشاعر، وهما لا ينسيان هذا النسب العالي والاخاء الروحي في أشد أوقات الخلاف والعداء .

وحينما يتحدث أدهم عن رسالة الشاعر يذهب أنه ليست وظيفته أن يتناول الحق مباشرة وانما وظيفته ان يتناوله من الجانب الحسي وينضو الجمال ويمزجه بحياة الانسان وعواطفه وأهوائه ومراغبه ، وليست المكانة الاولى في الشعر لما قاله الشاعر في ذاته وانما لكيفية

قوله وأسلوب ادائه . وليس الشاعر هو الرصاص الوزان الذي يرصف الالفاظ رصفا ، وينحت التراكيب ويوقع التفاعيل ويتخير القوافي الرنانة ، فهذا وزان نظام لا اكثر ولا اقل مهما تسامى أو أسف ، وانما الشاعر الحق هو الذي يعبر عن أعمق الحقائق ويلمس خفايا القلوب ويطوف بنا في مشارق النفس ومغاورها ليرشدنا الى افاق فكرية فسيحة ويركز اعلامه فوق مطالعها وثنياتها . والشاعر الحق كذلك هو من كان بطبيعته اكثر استيعابا لمؤثرات الكون المحيطة به وبخاصة تلك المؤثرات التي يرتضي تصويرها الفن ، وهو يجمع الى ذلك موهبته الموسيقية والتنغيم والسيطرة على اللغة وتسخيرها في أداء أغراضه والترجمة عما يقوم بنفسه من التأثيرات وما يدور فيها من شتى الخوالج، والشاعر الكبير الذي يعبر عن روح العصر ، ويصف شتى جوانب النفس الانسانية، وتلتقي في نفسه البواعث المختلفة والتيارات المتناوحة، يلزم له مجهود ضخم ، وعلى الطبيعة ان تجزل له المواهب السنية، ولا مفر من أن يزاد الى تلك الحساسية اللطيفة والطبيعة المزودة بالانغام عقل كبير يضيء الظلما تويكشف المخبآت تشد من قوائمه في أكثر الاحايين ثقافة عالية وعلم وافر ، وأمثال هؤلاء الشعراء قلائل في كل الامم ، بخيل بهم الزمن ، وأبو العلاء من هؤلاء القلائل .

ولعل النزعة الفلسفية جارت في أبي العلاء على السليقة الشعرية، وفي المعركة التي نشبت بين عقله وعواطفه تغلب العقل في كثير من المواقف واستعلى على العاطفة وقد دفع ابو العلاء ثمنا غاليا لذلك ، ولولا انتهاجه هذه الخطة واسرافه على نفسه فيها اسرافا أساء الى شاعريته لكان شعره أجرى الى مسالك النفس وأشد حوكا في الطباع ، ولقد أجاب أبو العلاء داعي الفلسفة ولم يلب داعي الشعر لما قطع الاتصال المباشر بينه وبين الحياة والمجتمع وظل في عقر داره يحلل أفكاره ، ويشرّح عواطفه، ولا يتعرض لحلو التجارب ومرها ، ولا يعاني مد الحياة وجزرها ، والوقوف على الشاطىء وعدم المغامرة في اللجج ومجانبة التقلب في أدوار الامل والخيبة والارتفاع والهبوط مسلك قد يلائم طبيعة الفلاسفة المتنسكين والعباد الزاهدين ، ولكنه مفسدة أي مفسدة للشاعر ابن الطبيعة المدلل وصفيها المحبب ، وقد غض هذا المسلك من روعة خيال المعري وشوه من جمال شعره ، وثارت شاعريته الاصيلة لنفسها من نزعة التجريد والانطلاق وراء الحق الفلسفي فصار أطول الناس مصابرة وأشدهم جلدا على القراءة لا يستطيع أن يمضي في قراءة صفحات معدودة من اللزوميات دون أن يحمل على نفسه ويعنفها .

وفي تصورنا ان الاستاذ ادهم في هذا المنهج الفكري النقدي لفلسفة الادب انما يبتدع منهجا جديدا على فكرنا ونقدنا العربي، وان كان قد سبق ببعض أبحاث لبعض المفكرين العرب في هذا الاتجاه، فانها لا تعدو أن تكون محاولات فضلا عن أن تكون منهجا .

معيار العبقرية :

ودليلنا على عبقرية الاستاذ أدهم الذي لا ينقضه أي باحث ولو كان من أولئك الذين يزعمون أن الضمان الوحيد لسريان أي دعوى تجديدية يقوم على غمط الرواد حقهم ، والضرب صفحا عن أعمالهم.

دليلنا على عبقريته ما كتبه عن معيار البطولة في كتابه « صقر قريش » اذ أنه ذهب فيه الى ان المتأمل في تاريخ الانسانية في هذه الارض ـ زورق الحياة الصغير الذي ينساب بنا في علم من اللانهائيات جياش العباب يهول صمته ولا يسبر عمقه ـ يجد أن الحركة التاريخية السائرة من انبلاج فجر الحضارة تتجه الى غاية مجهولة ، وقد تكون تلك الغاية من فوق متناول الافهام ومن وراء خطرات الاوهام، ولكننا نحس وجودها ونستشف أثرها من وراء فوضى الحوادث واختلاط الظواهر ، وحول اثبات تلك الغاية ، وتلمسها واستيضاحها أو انكارها وطمس معالمها تدور أرجاء معارك فكرية بين المدارس المختلفة من المفكرين.

على أنه يذهب في هذه الغاية الى انها ظاهرة السمة في الحركة التاريخية ينم عنها ذلك التدرج والانتقال الدائم في النظم والاوضاع الاجتماعية ، وقد تصدى كثيرون من أعلام الفلاسفة لاثبات هذا الترقي الملموح في التاريخ وفي طليعتهم « فيكو » و « هردر » و « هيجل » ، والحق أن ترقي الانسانية من نظام الفردية الى نظام الاسرة فالقبلية فالملكية ثم ظهور السلطة الدينية ومجيء عهد القوات الكبرى في العصور الحديثة يدل على ان هناك تدرجا دائما وراء تلك الاستحالات في الاوضاع الاجتماعية وان الحضارة تتجه الى غاية تشترك الامم المختلفة في سوق جموع الانسانية اليها . ويمضي أدهم مبينا أن الافكار هي أداة السيطرة في هذه الدنيا ، وهي اللب والصميم لكل تلك التغيرات الخارجية ، وهذا ما يؤكده الاستقراء التاريخي ، ومن ثم فان كل دور من هذه الادوار التي مرت بها الانسانية نتيجة لظهور فكرة العصر ، او روح العصر . وهذه « الفكرة » تظهر في مستهل امرها غامضة ملتبسة يحفها ضباب من الغموض وتفر من المنطق والتحليل ، ثم تنجلي عنها سحب الغموض وتزول شيئا فشيئا حتى تظهر الفكرة جلية واضحة، ثم يدركها العفاء والبلى فتذبل وتذوي وتقوم على اثارها فكرة جديدة. فتاريخ الانسانية اذن سلسلة من الافكار التي توالت على الدنيا وارتسمت في صفحة الحياة البشرية ، واكثر معارك التاريخ وأيامه كانت لتغليب فكرة من هذه الافكار على الاخرى .

ثم يدلف الاستاذ أدهم الى الحديث عن الطريق الذي تسلكه الفكرة ، ويرى في ذلك أنها تتخذ لظهورها طريقين : أحدهما الجماعات والاخر الافراد ابطال التاريخ ، وهي تظهر في الجماعات بشكل دافع يستحثهم على الهجرة والانتقال مثل رحلات قبائل البدو السامية من جوف شبه جزيرة العرب الى حوض دجلة والفرات ، وظهور حضارة بابل وأشور نتيجة لذلك ، والذي يسوق الجماعات في تلك الاحوال هو الغريزة التاريخية التي تدفعهم من حيث لا يشعرون وهم يخالون انفسهم متجهين الى غرضهم الخاص المعين ، وغرضهم الخاص هذا في الاعم الاغلب قليل الشأن ضئيل الى جانب الغرض الكبير الذي ترمي اليه الغريزة التاريخية ، وهذا الغرض لا ينكشف خفيه الا بعد زمن..

أما الطريق الاخر لظهور الفكرة فيتمثل في الايحاء الى الافراد الذين نسميهم أبطال التاريخ واتخاذهم روادا للفكرة وطلائع لها ، وهم أشبه بآلات في يد الفكرة ، يعملون على تحقيقها من خلال سعيهم الى مجدهم الشخصي ، وهم يؤدون للانسانية خدمات من وراء افاق تفكيرهم

في المكتبات

انا وسارتر والحياة

بقلم سيمون دوبوفوار

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

في هذا الكتاب الرائع تروي لنا الكاتبة الوجودية الكبيرة قصتها مع الرجل الذي كان شريك حياتها ، من غير ان يكون زوجها ، جان بول سارتر . وهي من خلال ذلك تقص تلك المغامرة التي ادت الى انتصارها : كيف اصبحت كاتبة الى جانبه . وكيف كانا وما يزالان يواجهان الحياة .

قصة رائعة ، عميقة ، نابضة بالحياة

منشورات دار الاداب ـ بيروت

الثمن اربع ليرات لبنانية او ما يعادلها

تسوقهم الى النهوض بها الغريزة التاريخية التي تستغل قوة طموحهم لبلوغ مآربها وادراك غايتها كما تنتفع غريزة حفظ النوع من اذكاء عاطفة الحب وتتخذها وسيلة من وسائلها ، فالغريزة التاريخية تبتعث طموح العظيم لتحقيق الفكرة ، والغريزة النوعية تهيج عاطفة الحب لابقاء النوع ، فالعظيم والمحب كلاهما مخدوع مسوق الى تنفيذ غايات لا تبرز في ساحات تفكيره .

ولكي يستدل على صدق نظريته يضرب مثلا بعبد الرحمن الداخل انه لما كان يجاهد لتسنم عرش الاندلس لم يكن يعلم انه سيكون احد المؤتمنين على ميراث الحضارة وانه لولا تلك الاسرة التي أسسها لكانت الدنيا غير ما هي عليه ، وأن أرض الاندلس ستلقى على يد خلفائه أسعد أيامها وأزهى حضارتها .

والمقياس الذي يقيس به عظمة هؤلاء الرجال هو انهم أدوا مطالب عصرهم وحققوا الفكرة التيكانت تضطرب في أحشاء الزمن، وهميمتازون بخضوعهم لعاطفة مستعلية عليهم غلابة على نفوسهم ، وحول القوة التي تفيضها هذه العاطفة وتصبها على الفكرة الهابطة على العصر تتركز أكثر الحركات التاريخية ، وتأخذ هذه العاطفة عليهم مسالك نفوسهم فلا يستوطئون راحة ولا ينعمون بسعادة وهي السر في الجهود الجبارة التي يبذلونها ونراها نحن من فوق طاقة البشر وخارجة عن دائرة الامكان .

ويختم حديثه في هذه القضية مبينا أنه من دواعي اعجابنا بهؤلاء العظماء اضطلاعهم بأعباء عصورهم ، ومما يثير حبنا لهم وعطفنا عليهم أن نهاية حياة أكثرهم كانت أشبه بالمأساة ، فان الفكرة تنبذهم بعد تحقيقها فيموت أحدهم في روعة شبابه أو يبقى ليهجره أصدقاؤه وتنقطع الاسباب بينه وبين انصاره ، وتحفه طائفة من الخواطر السوداء والافكار المزعجة حتى ينشب فيه مخلب الموت مثل عبد الرحمن الداخل.

على أنه يدرس في كتابه « ألوان من أدب الغرب » العبقرية الاسبانية ، فيذهب الى أن اسبانيا لم تقدم للثقافة الاوروبية في عالم النظريات والمبادىء ما يقعدها فيالصف الاول من غيرها من البلدان الاوروبية . وذلك بالرغم من أنه نبغ في اسبانيا بعض العلماء والفلاسفة ولكن اسبانيا لم تخرج عبقرية من الطراز الاول في العلوم او الفلسفة، ولم تظهر في جنوب جبال البرانس حركة فلسفية ملحوظة او نهضة علمية مأثورة ، .

ويعتمد في تعليل ذلك على بعض مفكري الاسبان الذين ذهبوا الى أن السبب في ذلك تغلغل الفردية في نفوس الاسبانيين، لان تلك الفردية المتمادية تعوق تحولالافكار الشخصية الى مذاهب اجتماعيةاو حركات فلسفية .

كما أن اسبانيا لم تقدم شيئا يذكر للتفكير المجرد والبحث العلمي، ذلك لان العقل الاسباني بطبيعته قليل الاقبال على التجريدات،ولا يستسيغ في سهولة ويسر التفكير النقي الخالص ، ودأبه في الفن او الادب ان يجعلهما وسيلة للحياة ، لان الحياة في رأيه أكبر وأجل منالفن والادب ، وهو يعتمد على الاستجابة للقلب الانساني مباشرة أكثر مما يعتمد على الاسلوب ومذهب الانشاء ، وفرط حبه للحياة يغريه بتجاهل الفضيلة ويبعده عن التعصب لها ، لان الفضيلة جزء من الحياة ، والجزء مهما عظم شأنه أقل من الكل ، ولا يستحق من أجل ذلك رعاية خاصة، ولذا لا تلمح في الروايات التي جادت بها العبقرية الاسبانية تفضيلا لاحد الاشخاص على الاخرين ، والجميع عندهم كما يقول المثلالاسباني « أبناء الله » وهذه النزاهة الادبية بادية في كل الاثار العظيمة عند الاسبانيين في الادب والفن ، تطالعها في كل صفحة من صفحات « دون كيشوت » وتلمسها في كل صورة من صور فيلاسكيه .

والادب الاسباني ـ في نظر مفكرنا ـ يحاول أن يصف الانسان من حيث هو انسان مكون من لحم ودم وأعصاب وعظام ، ولا يطيق أن يحيله « فكرة » باقية، أو يصيره « قالبا » . والفرق بين عبقرية « سرفانتيز » وعبقرية «جيتي» أن « سرفانتيز » كان يعتمد على الحياة وحدها ، أما « جيتي » فانه كان يسترشد بفلسفات وموازين أدبية وقواعد فنية يستمد منها ، ويستقي من منهلها .

ويمضي الاستاذ أدهم في حديثه عن العبقرية الاسبانية مدعيا أنه فيالوقت الذي تنزع فيه أوروبا في تفكيرها الى الموضوعية ، وترغم الانسان على ان ينيم أهواءه ، وينسرح من ذاتيته ، ليستطيع العقل ان يفهم الاشياء فهما سليما ، ويكون لها صورة صحيحة ، فان اسبانيا في الوقت نفسه تنظر الى الانسان بقضه وقضيضه على انه محور فلسفتها وأساس فنها وأدبها .

ومن ثم فان العبقرية الاسبانية ـ كما يراها أدهم ـ ضيقة المدى، ولكنها عميقة مثرية ، وفكرة الموت لها في الادب الاسباني شأن كبير، لان الادب عندهم يدور حول الانسان، وهذا الانسان الفرد هو تاج الخليقة وخلاصة الوجود ، ولكن الموت يثل عرشه ويهدم ايوانه .

على ان اسبانيا تخون فرديتها وتنسى رسالتها اذا كانت تقبل فكرة بقاء الانسان في نوعه او في أعماله ، لان تصور « الشعب » والاجيال القادمة في رأي العقلية الاسبانية تجريدات لا حقيقة لها ، وانما الانسان « الفرد » هو الحقيقة ، وهو الذي ينتزعه الموت ، ويطويه الفناء ، فشدة شعور العبقرية الاسبانية لا تستسلم لفكرة الموت ففي اعماقها كنوز من النشاط والهمة والعزيمة الماضية كافية للتغلب على الالم ومكافحة اليأس ، ومن هذا النبع العميق للحياة تنبجس في نفسها الصوفية.

كما أن القوة الخالقة في الادب الاسباني أقوى وأوضح من القوة الناقدة ، والادب الاسباني في تطوره يتبع العبقرية القومية ويخضع لها، ويرفض كل املاء عقلي أو قاعدة مفروضة ، ويستهدي بغريزة الشعب التي تحدوه على تأمل الواقع وتفسيره تفسيرا مباشرا، وهذا هو سبب طرافة الادب الاسباني واستقلاله .

واخالنا بعد هذا التجوال السريع في بعض كتب الاستاذ عليأدهم لا كلها، لان الكتابة عن كتبه ودراساته كلها أمر يخرج عن الطاقةفي مقالة ، ويخرج ببحثنا عن قصده ، لاننا بصدد البحث عن موضوع لا عن اشخاص ، وانما الذي سوغ لنا الحديث عن ادهم والمعداوي ماعاناه هذان الناقدان من ظلم وغمط واهمال .

ومن ثم فاننا قد خرجنا من هذا التجوال بمناهج في فلسفة التاريخ والادب والعبقرية ولمنتحدث عن أدهم الناقد بالرغممن دراساته النقدية الكثيرة التي تربى على خمسين دراسة مفصلة عن شعراء وادباء وموضوعات كلها جديدة من حيث النظرةوالتفكير.

ومن يتتبع اثار أدهم النقديه فانه لا شك يخرج بمبادىء ونظريات تكون اتجاها « أدهميا » في النقد ، على هذا المستوى من التفكير في الفلسفة والتاريخ والادب بأجناسه كلها . وكم كان بودنا أن نعرج عليها لنرد على من خالفنا في المعداوي بأن أدهم مفكر أكثر منه ناقدا، غير ان ودنا ليس بنافع ولا شافع ازاء ضيق المقام ، وسنحيله على مؤلفات أدهم في النقد العربي التطبيقي ليقرأها بنفسه منفردا ونحن نثق فيما يخرج به بعد ذلك ، لانه سيصافحنا معتذرا عما بدر منه في شأن روادنا الاعلام .

وعلى الرغم من ضيق المقام فاننا نرى أن هذا القسم من القبلية النقدية بحاجة الى الحديث أيضا عن المبدعين من الشعراء والقصاصين وغيرهم بطريق الاجمال .

وفي هذا الصدد فانني أدلف الى الحديث عن كاتب قرأت نتاجه الروائي في طفولتي فقرأت له « مليم الاكبر ، وويك عنتر ، وملك من شعاع » ومع ذلك فقد انقطعت عني أخباره ولم أدر أين يكون هذا الكاتب الذي ملك علي شغاف قلبي يومئذ .. يوم قرأت ومتعت نفسي به .. أين صاحب هذه المؤلفات .. أين عادل كامل .. الذي انقطع عن الكتابة ولم يتعد بعد مرحلة شبابه الادبي .. لماذا لم يواصل الكتابة كصديقه في السراء والضراء نجيب محفوظ ..

انه يحكي لنا في مقدمة مليم الاكبر عن كبده المقروحة منجراء ما يحدث في الحقل الادبي ويتمثل بقول الشاعر :

ولي كبد مقروحة من يبيعني بها كبدا ليست بذات قروح

ولقد تقرحت كبده من لجان الجوائز الادبية وغيرها ، وما يعانيه من البيئة الادبية بصفه عامة ، ومما يكتب في المجلات الادبية بصفة خاصة . ومن هنا فاننا لنراه يكتب مقدمة نقدية لرواية « مليم الاكبر » في مائة وثمانية وعشرين صحيفة، تفيض بالمرارة والالم ، مما يعانيه الفن والفنانون مع من نصبوا من أنفسهم مهيمنين على النشاط الادبي والثقافي في بلدنا .

ولقد عالج في هذه المقدمة جميع المشاكل النقدية التي كانت تثار وقتذاك في عام ١٩٤٤ ، وهو العام الذي أصدر فيه « مليم الاكبر »، واتسمت معالجته لهاتيك المشاكل بالسخرية التي برع فيها صاحبنا، اذ رد على كل مأخذ من المآخذ التي كانت تصوب الى القصص والشعر، وهي مقدمة كان بودنا أن يتعرف عليها القراء ، ولكن ضيق المقام الذي أصبحت اضيق به كل الضيق هو الذي جعلني أقول عنها ما يقوله الدارس لها في نهاية دراسته حينما يتحدث عن الاثر الذي تركته في نفسه ، فهي من عمل فنان يعالج مشاكل النقد ترفده في ذلك الروافد الطبيعية للناقد الحق ، وهي الاصالة والتجربة والثقافة والضمير الادبي.

أما من حيث طاقته الابداعية في قصصه فيحدثنا عنه الإستاذ سيد قطب في كتابه كتب وشخصيات حينما نقد « مليم الاكبر » .

« ان قصة مليم الاكبر هي قصة الصراع بين الطبقات مصبوبة في قالب فني ، فهي على هذا من أدب « الوعي الاجتماعي » الذي يدعو اليه جمهور من المفكرين في جميع أنحاء العالم .. وليس معنى انها من أدب الوعي الاجتماعي أنها تفقد بذلك السمة الفنية الاصيلة، لان المؤلف يبدو في قصته هذه صاحب موهبة فنية لا سبيل الى الشك فيها ، موهبة العرض ، والتنسيق ، ورسم الملامح والشخصيات وادارة الحوادث والمفاجآت .. فهي من هذه الناحية تستوفي صفات القصة الجيدة على وجه العموم . ثم هي تحمل طابع مؤلفها بوضوح في نواحي النقص فيها ونواحي الكمال ، فالمؤلف صاحب طريقة مطبوعة وأسلوب مرسوم ، وهذا يقرر وجوده الفني في عالم القصة بلا جدال » .

والاستاذ قطب هو الناقد الذي اعترف له نجيب محفوظ في الحفلة التي أقيمت لتكريمه ببلوغه الخمسين من عمره ، اعترف له محفوظ بأنه والمعداوي يرجع اليهما تقدمه في الفن ، لانهما كانا يتناولان اعماله الادبية بالنقد والدراسة المستأنية الفاحصة ، فعرفاه قيمته الادبية والفكرية ، واطلعاه على نفسه .

واذا صح ان عادل كامل زميل لنجيب محفوظ وصديق ، من حيث العلاقة الانسانية والاتجاه الادبي ، واذا صح ان قطبا تناول اعمال عادل كامل وقال فيه ما قال ، كما تناول اعمال نجيب محفوظ .. اذا صح هذا وذاك أفلا نكون على حق بأن عادل كامل قيمة أدبية معطلة.. وما الذي جعله يأنف من حياتنا الادبية والفكرية حتى يطلقها طلاقا بائنا لا رجعة فيه ، ويعمد الى احتراف التجارة كما قيل لي ..

أغلب الظن أن القبلية النقدية لا يمكن ان تصنع أسوأ مما صنعت مع صاحب المليم الاكبر وملك من شعاع وويك عنتر . ومن ثم فان انقطاعه عن العالم الادبي له مبرراته التي أومن بها كل الايمان.. والتي آمل لوطني أن يبرأ منها ومن مرتكبيها الحمقى.

والقبلية النقدية في صميمها وأسوئها هي التي تدفع بنقاد القبائل ألا يتعرضون بالدراسة الجادة المفيدة لمن لا ينتمي اليهم.

وللتدليل على ذلك نذكر بعض الروائيين لنسائل انفسنا عن الدراسة التي تعرضت لاعمالهم الادبية ..

طاهر الطناجي :

ماذا اصابت قصصه من عناية النقاد ، معروف ان الرجل ينتج في عالم القصة والتاريخ والشعر ، بل لقد طلب منه العقاد في المصور الصادر في ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٧ أن يعطي للقصة والتاريخ بعض وقته ليبدع .. فأين هو من دراسات نقادنا الاجلاء . ولماذا لم يدرس .. لانه لا ينتمي ..

محمد عبد الحليم عبد الله :

قصاص بارع يترك الاعمال الادبية تمضي الى نفوس القراء وعقولهم دون ما جلبة أو ضوضاء ، ولا يعرف القارىء متى صدرت روايته ولكنه لا يتركها اذا ما لمحها دون اقتنائها ، ولكن رواياته لم تلق من الدراسة النقدية ما تستحقه في عالم النقد.. ولماذا ؟ لانه لا ينتمي..

محمد عطا :

قصاص بارع له من انتاجه الوافر ما يقعده في مصاف الرواد في عالم القصة ذات الوعي الوطني ، وناقد بارع ، له مؤلفات في النقد لها أصالتها وقيمتها الادبية ، وكتابه « الحركة العاقلة » يشير الى منهج في النقد يدعو الى الايجابية في عالم الفن والادب ، لا الى السلبية التي دعت اليها تعادلية توفيق الحكيم ، وبالرغم من أصالة محمد عطا في قصصه ونقده ومنهجه ، فان ناقدا لم يميم وجهه صوب هذا الانتاج الفخم .. واذا سألت عن السبب لقيل لك انه لا ينتمي ..

نجيب كيلاني :

روائي له من الاصالة ما اجتاز بمبدعاته جوائز وزارة التربية وغيرها ، وما جعلت رواياته تقرر على مدارس وزارة التربية ، سل نفسك ان شئت .. أين نجيب في عالم الدراسات النقدية .. يجيبك العاقلون .. انه لا ينتمي ..

واذا ما اجتزنا عالم الرواية والنقد الى عالم الشعر لصدمتنا حقائق مرة تحمل افكارا صدئة واحساسا قبليا باليا ، لان هناك من يدعون التجديد ، ومن يدعون قيادة الحركة التجديدية ، وهؤلاء يريدون للحركة بطبيعة الحال ان تسود .. وكيف .؟؟ لا طريق اذن الا بأن يضربوا صفحا عن أي شعر يقال على غير طريقتهم ، واذا ما تعرض ناقد لهذا الشعر الذي يخرج عن اطار الحركة التجديدية فللتندر به، أو لاظهار أستاذية شاب على ذلك الشاعر بعد الموازنة المنحرفة عن القصد..

وتأسيسا على هذا سننظر مع القارىء في أعمال بعض الشعراء كأمثلة لغيرهم لم يلقوا من العناية ما يلقاه شاب ناشىء في السن والشعر معا ..

محمود حسن اسماعيل :

شاعر جبار مزود بطاقة شعرية لها من القدرة على ان تحيل كل تجربة الى احساس شعري ضخم ، ومن هنا سماه الدكتور مندور « وحش الشعر » له عدة دواوين سعدت بها العربية في ميدان الشعر، والتهمها المتأدبون التهاما ، وغزت أسواقنا الادبية بمعناها الواسع، ومع ذلك ، فان أحدا من النقاد لم يهتد الى دواوينه لانهم يلبسون على أعينهم غطاء كثيفا ، كان يسميه الاقدمون « طاقية الاخفاء » وذلك لكي يحولوا بين أعينهم وبين رؤية شعره ..

العوضي الوكيل :

له سبعة دواوين كلها جيد ، وله باب اختص بريادته تناول به شعراء العربية ومفكريها بالشعر النقدي ، حيث رسم فيه الشخصيات التي تناولها وأعطى فيها حكما نقديا ، وهو باب فريد أدخله العوضي الوكيل في أدبنا ونقدنا على سواء تحت عنوان « رسوم وشخصيات » ومع ذلك يبدو أن النقاد في اجازة عن تناول هذا العمل الرائع ، لانه لا ينتمي ..

عبد الرحمن صدقي :

فنان محلق في سماء الشاعرية ، وناقد فني يجاري أعلام الفن العاملين ، له دراسات تتسم بالذوق والتمييز ، ومع ذلك فان نقدا لم يوجه الى شاعريته يستحق الذكر ، ولا الى دراساته بالرغم من انها تربى على عشر ، ولماذا أيها النقاد ؟؟. لانه لا ينتمي ..

احمد مخيمر :

شاعر عملاق ، يبدع الان لنفسه ، ولا يحتفي بالنشر أو الشهرة، له ملاحم طويلة لم يكتب لها البعث على صفحات الورق في كتاب ، تلميذ لابي العلاء في لزومياته ، حيث أبدع شعرا تحت عنوان «لزوميات مخيمر » .. وهو غير معروف الا لجيله والدارسين لان عناية النقاد ضلت طريقها وهي متوجهة الى قصره في عالم الفن لتقف على باب كوخ لشاعر حر يلفظ انفاس طاقته على ابداع قصيدة من الشعر الجديد..

عبده بدوي :

وفيه تتضح القبلية النقدية ، لانه كان ينظم الشعر الملتزم الاطار التقليدي ، فلما وجد اغفال النقاد لهذا اللون عدل عنه بعض العدول ليقول في الشعر الجديد قصائد ضمنها ديوانه الاول ، فالتفت اليه نقاد الشعر الجديد ليجعلوا منه شاعرا عبقريا ، ولكنه لم يقتنع فيما بينه وبين نفسه .. فعاد الى الشعر الملتزم قافية موحدة او متنوعة فاذا بالشاعر الذي كان يدرس بالامس لا يعرف عنه شيء ، كأن بينه وبين النقاد موجدة .. أتاحت لهم ان يتجاهلوا شعره .. لانه الان لا ينتمي ..

فوزي العنتيل :

وماذا نقول في فوزي العنتيل ، ثالث ثلاثة ملأوا سماء المجلات الادبية في العقد الخامس وأوائل السادس من هذا القرن في مصر ، هو والفيتوري وكمال نشأت ، ومع ذلك فانه بالاضافة لما يلاقيه في العمل من جراء القبلية النقدية على لون اخر ، فان النقاد لم يدروا ان له ديوانا يسمى « عبير الارض » ، يوم كان يتصرف في « الرسالة الجديدة » كانوا يتملقونه ، فلما سافر الى لندن ورجع لا يعرف أحد منهمعنه ولا عن نتاجه الشعري شيئا كأن ديوانه قد أكلته الارض ولم يبق شيئا ..

أما عالم الفكر فان للقبلية النقدية فيه أمرا عجبا ، لان الذي لاشك فيه أن هناك روادا آثروا الوطن على انفسهم فحملوا أرواحهم على أكفهم، وراحوا يبصرون المواطنين بما يحاك لهم من ظلم وجور ، وما يشتملون عليه من امتهان للانسانية ، وراحوا يدفعون عن الناس الكهانة الدينية التي كان المستعمر وحفدته من أبناء العرب يستخدمها للبقاء في البلاد ، لا شك أن في مقدمة هؤلاء الاستاذ خالد محمد خالد الذي أربت كتبه على نيف وعشرين كتابا كلها جديد في بابه ، بل لقد وصل الكتاب العربي ممثلا في كتاب خالد أرقى ما وصل اليه في عصوره الزاهية اذ طبع من كتابه « من هنا نبدأ » عشر طبعات ، فلم لا نرى الدارسين يتناولون أعماله الفكرية بالدراسة والتمحيص ، وما هي الوظائف التي تليق لمفكر مخلص مثل خالد محمد خالد . أغلب الظن أن الوطن كان يستفيد من قيادته الفكرية والادبية على سواء ، ولكن القبلية في صميمها وأسوئها هي التي خولت للنقاد أن يتجاهلوا ذلك النتاج الجبار الذي لن يخبو ضوؤه في يوم ما من الايام ...

والذي نريد ان نقوله الان اننا لا ننفي أن هناك دراسات قامت حول بعض الادباء على أيدي بعض الزملاء من الصحفيين ، لاننا لم نقصد بالدراسة هذا اللون من التحية التي تقدم كاعلان للكتاب او صاحبه، وانما نقصد الدراسة العلمية التي يكون لها وزنها وقيمتها في عالم النقد .. والذي نريده كذلك أننا كنا نود أن يلقى المفكرون من الدولة تكريما بأن توليهم زمام القيادة الفكرية لانهم اخلص عليها من حملة العكاكيزوالكيزان الذين سنعرض لهم في القسم الثاني من هذا الفصل..

كنا نود ذلك لاننا نحس بالظلم عليهم ، وما أشنع الظلم وأبشعه حين يكون على مفكر أو ناقد أو أديب .

عبد الحي دياب

دار الاداب تقدم :

((الشاعر القروي))

(رشيد سليم الخوري)

في ديوانه القومي المنتظر

الأعاصير

● الشعر الوطني ، الشعر المشرب بروح الوطنية العربية الكبرى ، هو هو الشعر الذي يلزمنا اليوم . وقد جئتنا انت به ، وجئتنا بالحمم بدل الدموع .

امين الريحاني

● كل حرف من منظومك شواظ من نار ، وكل بيت عرينة يزأر فيها أسد غضوب . فلست مبالغا اذا قلت انك شاعر الوطنية الذي لا يتعلق به درن . وان لك في عنق كل عربي صريح منة لا تجحد .

امين ناصر الدين

● انك شاعر العروبة منذ وجد العرب ، فلم يتفق ان وجد شاعر اخلص للعروبة وجاهد في سبيلها وتغزل بفضائلها مثلك .

احمد الصافي النجفي

● انت ذو روح وثابة ، خدمتها قريحة وقادة وشاعرية عالية ، استطعت ان تترجم بها ما يضيق به صدرك بأفصح اسلوب وابلغ تعبير فجاءت أعاصيرك بما يتعاصى على البلغاء ويتمنى أن يلهم بمثله أشعر الشعراء .

فارس الخوري

● الله الله للشعر الموفق في أوسع ما يقع معنى التوفيق الشعري . فهنيئا للعصر بديوانك ، بل للملايين العرب في كل قرار لهم على جنبات المعمور .

امين نخله

● اعليت شأن الادب في المهجر ، وبيضت وجه العروبة ورفعت قدر البرباره الى مستوى العواصم الخالدات . فلبنان مديون لك بالشيء الكثير.

بولس سلامه

صدر حديثا الثمن ٣٥٠ قرشا لبنانيا